مقدمة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

استعمار القرن العشرين

بدأ الإستعمار الحديث فى القرن الثامن عشر ، ولكنه كان صورة جديدة من صور الاستعمار الكثيرة فى العصور الغابرة ، فان الاستعمار بجميع أغراضه قديم لم يخل قط من سيطرة حربية أو غلبة سياسية أو سخرة إقتصادية ، وإنما تتغير أشكاله وأساليبه ودعاواه من عصر إلى عصر ، وقد تتغير فى العصر الواحد على حسب إختلاف الأمم التى تصيب بالاستعمار واختلاف الأمم التى تصاب .

ولم يصعب على الناس فهم حقيقة الاستعمار منذ كان على عهود الدول الكبيرة التى سلفت فى التاريخ القديم . وحقيقته هى السيادة السافرة أو السيادة المقنعة ، ولكنها على الأغلب كانت من قبيل السيادة السافرة التى لاتحاول التقنع ولا ترى حاجة اليه ، لأن حكم القوة كان شريعة مفهومة يخضع لها المحكوم من أبناء الأمة الغالبة كما يخضع لها المحكوم من أبناء الأمة المغلوبة ، فلم تكن بالغالبين حاجة الى التزويق والتزييف لادعاء حق من الحقوق إلى جانب حق القوة الصريح .

وربما كان الاختلاف الاكبر بين الاستعمار القديم والاستعمار الحديث محصوراً فى الاختلاف بين السيادة السافرة والسيادة المقنعة . فان السيادة السافرة تنقص مع الزمن كلما عرف الناس حقوقاً يدين بها السيد والمسود غير حق القوة وغلبة السلاح ، وتزداد ألوان السيادة المقنعة كلما احتاج الناس الى مسوغ متفق عليه يسوغون به استخدام القوة للسيطرة على الضعفاء أو لترجيح دعوى قوى على قوى آخر ينازعه فى ميدان الغلبة والاستعلاء

وكثرت أساليب السيادة المقنعة بعد منتصف القرن التاسع عشر فكثرت دعاوى المستعمرين التى يسوغون بها تسخير الأمم المغلوبة أو يسوغون بها الاستئثار بذلك التسخير . وتجمعها كلها دعوى واحدة يسمونها « أمانة الرجل الأبيض » ويزعمون أن أمانة التعمير واجب على الأمة المتحضرة نحو الانسانية جمعاء ، وأنها حق انسانى يقاوم حق الشعب المغلوب فى الحرية . لأن حرية شعب واحد محروم من القدرة على التعمير لا تجيز حرمان الانسانية بأجمعها من نعمة العمار التى يستطيعها أهل الكفاية لها من المتحضرين . فلا حاجة الى الاعتذار بغير عذر التعمير لمن يقتحمون ديار المغلوبين المتخلفين فى ركب الحضارة والعمران

أما أمانة التحضير — أو تعليم الحضارة — فهى كأمانة القاصر فى عنق الوصى عليه ، وهى بهذه المثابة عـــذره الذى يعتذر به فى سلب الحرية واقتحام حوزة الشعب الضعيف .

كانت أمانة التعمير ، ومعها أمانة التحضير ، هما القناع الذى تستترت به السيادة السافرة منذ بداءة الإستعمار الحديث فى القرن الثامن عشر إلى منتهاه الذى أو شك أن يصير إليه فى هذا القرن العشرين ، ولكنه قناع لم يزل يشف مع الزمن حتى بلى وسقط عن الوجوه والضمائر ولم تبق فيه بقية تستر ماوراءها ، وكان جيل واحد بعد الجيل الذى تلقى صدمات الإستعمار الأولى كافيا لظهور الحقيقة فى أمر هذا الإستعمار الحديث من وراء كل دعوى ومن وراء كل قناع .

وتعددت العوامل التى اشتركت فى كشف القناع عن حقيقة هذا الإستعمار من أواسط القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

ومن هذه العوامل مايرجع إلى المستعمرين أنفسهم فى شؤنهم الداخلية وشؤنهم الخارجية التى تختلف بينهم باختلاف الأوطان والأقوام والعـــلاقات .

ومن هذه العوامل مايرجع إلى الأمم المغلوبة على حسب نصيبها من النهضة والتقدم .

ومن هذه العوامل ما يرجع إلى أطوار الزمن عامة ولا دخل فيه لارادة أحد من الغالبين أو المغلوبين .

وبعض العوامل التى ترجع إلى المستعمرين أنفسهم أنهم أثاروا فى شؤنهم الداخلية مسائل الحقوق والحريات ومبادىء الحكم بموافقة المحكومين ، وظهر منهم من لا مصلحة له فى الفتح والتسلط وانفاق الأموال على التسليح والاستعداد للقتال .

وبعض هذه العوامل أن الدول المستعمرة كثرت وتنافست ووقف بعضها لبعض بالمرصاد طمعا فى المساومة وتبادل الغنائم والصفقات .

وبعض هذه العوامل أن هذه الدول قد احتاجت فى منازعاتها إلى المعونة من أبناء الأمم المغلوبة ، فلم يكن لها مناص من الاعتراف للأمم المغلوبة ببعض الحقوق ومن التنزول قليلا أو كثيراً عن دعوى الامتياز التى احتكرها القائلون « بأمانة الرجل الأبيض » حقبة من الزمن .

أما العوامل التى ترجع إلى الأمم المغلوبة فهى الثقة بنفسها وقلة الثقة بالمسيطرين عليها ، فانها مع التقدم فى المعرفة والحضارة أحست بحقها فى الحياة وأفاقت من الرهبة التى ملكتها لأول وهلة من جانب

المستعمرين الأقوياء ، وأنفت من مذلة الخضوع ومهانة الحرمان ، ولاسيما الأمم التى تعرف لها تاريخاً عريقاً تتعالى به على سادة اليوم وتستمد منه الثقة بصلاحها للحرية والسيادة .

وأما العوامل العامة التى ترجع إلى أطوار الزمن ولا دخل فيها لارادة الغالبين والمغلوبين فهى زوال مزايا الاستعمار التى من أجلها يتجشم المستعمرون أعباء الفتوح وتكاليف المحافظة عليها . فان الموازنة بين كفتى الربح والخسارة فى حساب الاستعمار لم تزل تنقص من جانب الربح وتزيد فى جانب الخسارة حتى أصبحت الصفقة كلها أو كادت أن تصبح فى عداد الصفقات الخاسرة التى لاتساوى تكاليفها ومشقاتها .

خمسون سنة منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين كانت كافية كل الكفاية لابراز هذه الحقائق واسقاط تلك الدعاوى التى تذرعت بها السيادة السافرة زمنا للتستر بهذا القناع أو بذاك من قنع التسويغ والتبرير... فليس فى العالم اليوم من يخضع للاستعمار عن خديعة فيه أو عن جهل بحقيقة أمره ، إلا أن يكون فى الدرك الأدنى فى الجهالة والهمجية . وأكثر من ذلك أنه لايوجد اليوم بين المستعمرين أنفسهم من يطمع فى خداع الناس بالدعاوى التى كانوا

يكررونها ولا يسأمون تكرارها إلى سنوات قريبة بعد الحرب العالمية الأولى . فان لم يكن هذا الاستعمار اليوم فى دور الافلاس التام فهو فى دور التصفية العاجلة قبل فوات الأوان ، ولعل دلالة الأرقام هنا أوضح من كل دلالة فى بيان تراجع الاستعمار واقتراب اليوم الذى يصير فيه إلى منتهاه . فان الأمم التى كانت مسلوبة الحق فى الحكومة الذاتية كانت قبل نهاية القرن التاسع عشر تعد بمئات الملايين فاصبحت اليوم وهى لاتزيد على خمسين مليونا فى القارات الخمس ، ومن كان منها خاضعاً فى حكمه للسيطرة الأجنبية فليس فى وسع هذه السيطرة أن تنكر عليه حق المشاركة فى الأمر وحق التطلع إلى المزيد من الاستقلال .

أفلس الاستعمار الحديث أو كاد ، ومن الإفلاس أنه يبقى حيث بقى غير مجهول ولا مخدوع فيه ، وأنه هو نفسه يعلم أن الخديعة بعد اليوم لا تتيسر له ولا تجديه .

إلا أن القرن العشرين قد تمخض عن استعمار آخر من نوع غير انواع الاستعمار التى عرفها الناس فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وهو - لحداثته - لا يزال مجهول الحقيقة عند الكثيرين طامعاً فى خديعة

العقول حيث انكشف القناع عن كل خديعة استعمارية تلبست على الناس فى العهود الأولى ، وفى هذه العهود .

وشر ما فى هذا الاستعمار الوبيل أنه كالمرض الذى يسلب المريض به رغبة العلاج أو رغبة الشفاء ، لأنه يمسخ مابقى فيه من معنى الآدمية فيحيله إلى حيوان لا خلاق له ولافارق بينه وبين سائر العجماوات ، إلا أنه يستبقى رذائل الإنسانية من الخسة والحسد ولؤم البغضاء والقحة التى عوفيت منها فصائل الحيوان .

ذلك هو استعمار المذاهب الهدامة أو مذاهب المادية التى اشتهرت فى الزمن الأخير باسم الماركسية أو الشيوعية ، فإنه استعمار يجمع كل شرور الاستعمار القديم والحديث ويزيد عليها ذلك المسخ والتشويه الذى يصاب به الإنسان فيهبط إلى حضيض السوائم العجماء .

* * *

إن كلمة الاستعمار باللغة العربية تشمل أنواعاً من الاستعمار مختلفة الأسماء فى اللغات الأوروبية ، ولكنها تتفق فى السخرة على وجه من الوجوه .

فهذه الكلمة تطلق على استعمار التوطن أوالاستيطان *Settlement or Colonization*

وتطلق على استعمار التسلط *Imperialism*

وتطلق على استعمار الضم أو الاستلحاق *Annexation*

وتطلق على استعمار الاستغلال *Exploitation* أو السيطرة الاقتصادية *economic Imperialism*

وتقابلها فى جملتها كلمة « الامبريالزم » ... وهى فى أصل استعمالها الحديث تدل على الدولة الواسعة ذات الأطراف المترامية والرعايا المتعددة من الشعوب المختلفة ، ولكنه إجمال يتبعه تفصيل كثير .

فاستعمار التوطن هو الاستعمار الذى يقوم على جالية من الأمة الغالبة تتخذ من بلاد الأمة المغلوبة وطناً تقيم فيه أو تتردد عليه وتستأثر بمرافقه .

واستعمار التسلط أن تبسط الدولة حكمها على أمم كثيرة فى بقعة واحدة أو فى بقاع كثيرة متباعدة .

واستعمار الضم أو الاستلحاق أن تدمج الدولة الغالبة أمة أخرى فى حوزتها بحدودها الجغرافية أو حدودها السياسية .

واستعمار الاستغلال أن تتخذ الدولة فى بلد من البلاد سوقاً محتكرة لشراء الخامات منها وبيع المصنوعات فيها أو تسخير الأيدى العاملة من

أبنائها ، وقد يدخل فى هذا الاستغلال أن تأخذ الدولة الغالبة بزمام الثروة فى البلاد المغلوبة بوسيلة من الوسائل المختلفة كإدارة المصانع أو أقراض الديون أو ربط المعاملات بالروابط التى تقيدها ولا تطلق لها الحرية فى اختيار معامليها .

وهذه الأنواع المتعددة قد تلتقى فى نظام واحد وقد تتفرق فلا يوجد منها غير نوع أو نوعين من سائر أنواعها . ولكنها مجتمعة كلها فى الاستعمار الشيوعى الذى يلتقى فيه استعمار التوطن واستعمار التسلط واستعمار الضم واستعمار الاستغلال والسيطرة الاقتصادية ، ويزيد عليه فى جميع هذه الحالات أنه يحرم الشعب المسخر كل وسيلة تمكنه من طلب الحرية ويمسخ الشعور الإنسانى فيه ليصير على الاستعباد ، عجزاً منه عن طلب الحرية أو قناعة بما يثار فى نفوسه من شهوات الضغينة والحسد وهى أقوى فى نفوس الهمل وأصحاب الهمم الساقطة من نوازع الحرية والكرامة .

ولا تحتاج السياسة التى تحقق هذه الاغراض جميعا إلى براعة فائقة ولا الى قدرة خارقة فى الدولة المتسلطة على الشعوب المغلوبة ، بل يكفى ان تباد فى هذه الشعوب جميع القوى الصالحة لقيادة الشعب وتوجيهه فى حركة التحرير فلا يبقى فيه غير الهمل المضطرين إلى الخضوع أو الخاضعين

باختيارهم لأنهم يجهلون قيمة الحرية ويتعوضون منها بما يهتاج فى نفوسهم المستذلة من شهوات الضغينة والتطاول على من كانوا ينظرون اليهم نظرة الحسد ويرضيهم ان ينظروا اليهم نظرة الشماتة.

ولا توجد اليوم فى الكرة الأرضية مساحة من الأرض أوسع مكاناً وأكثر سكاناً من المساحة التى يشغلها استعمار الشيوعية فى القارتين الأوربية والأسيوية ، ولا يوجد فى أنواع الاستعباد ماهو أشد قسوة من الاستعباد الذى يخضع له المسخرون لهذا الاستعمار بمختلف الأسماء والأنظمة والعناوين . . . . فهناك بلاد يطلقون عليها اسم التوابع أوالاذناب *Satellites* وبلاد يطلقون عليها اسم الجمهوريات المتحدة *United Republics* وبلاد يطلقون عليها اسم أقاليم الحكم الذاتى *Autonomus Regions* وماشا كل هذه الاسماء .. وكلها لاتملك من حرية الرأى شيئاً إلى جانب الدولة الكبرى التى تشرف عليها ، فلا تسمع مرة واحدة ان حكومة تابعة قد اجترأت على معارضة الدولة المتبوعة فى رأى من الآراء التى تعلنها ، ولا يحدث مرة واحدة ان أمة من أمم المستعمرات الشيوعية كان لها صوت فى هيئة الامم المتحدة يعارض صوت الدولة الكبرى فى مسألة هامة من مسائل السياسة العامة ، ولا يتفق يوماً أن تقول المجر أو بلغاريا أو رومانيا أو بولونية برأى يخالف الرأى المملى عليها من سادتها،

كما اتفق إحيانا كثيرة ان تختلف آراء كندا والهند واستراليا وآراء انجلترا أكبر الدول الاستعمارية فى خارج الكتلة الشيوعية . وإذا كان هذا مبلغ الاستعباد المسلط على الأمم المستقلة المسماة بالتوابع أو الأذناب بعد أن وصلت إلى درجة من الشخصية الدولية تبيح لها ان تتمثل فى هيئة الأمم المتحدة — فقل ماشئت فى الامم الأخرى التى لم تبلغ هذا المبلغ ولم تستقل هذا الاستقلال ولم تعرف فى محيط السياسة الدولية « بشخصية » متميزة فى حاضرها الراهن أو فى ماضيها القريب .

وأعسر من الحرية فى الحكومات البارزة أمام أنظار العالم بأسره — ان تتاح الحرية الضرورية أو الحرية القومية فى داخل البلاد المغلوبة وهى مزوية مطوية وراء حدودها ، محرومة من وسائل الاتصال بينها وبين ارجاء العالم الخارجى ولو كانت إلى جوارها . ثم لم يحدث قط فى داخل تلك الأمم ان تيسرت وسيلة من وسائل المعارضة لأحد من افرادها أو لطائفة من طوائفها . وسيان أن تكون هذه المعارضة حاصلة — على فرض حصولها — ثم لا تصل أخبارها إلى خارج حدودها وان تكون هذه المعارضة معدومة ممتنعة كل الامتناع ، فانها فى الحالتين تدل على حالة من الاستعباد ومسخ الآدمية لا نظير لها ولم يكن لها نظير قط فى عهد من عهود الاستعمار القديم أو الحديث .

وقد كانت إدارة الأملاك الواسعة تتطلب فى الامبراطوريات الكبرى كثيراً من البراعة السياسية ، وكثيراً من النفقة على العدد الحربية، لة لأن الغالب على تلك الامبراطوريات أن تكون الأمة صاحبة السيادة أقل عدداً من الأمم الخاضعة لها ، مع تباعد المسافة بين أطراف الدولة وضرورة الوصل بينها بالمواصلات المأمونة والمعاقل الحصينة التى تقام فيها الحاميات المتأهبة على الدوام لقمع الفتنة ومنع العصيان ، ولا يتأتى للأمة المتسلطة أن تطمئن إلى مواصلاتها الا بتنظيم العلاقات بينها وبين رؤساء الأمم التى تحكمها وتدخلها فى حوزتها . فمنها من تحالفه أو تعاهده ، ومنها من تراقبه وتقيم الحراسة عليه ، ومنها من تسمح له ولبلاده بقسط من حرية التصرف والإدارة الحكومية ، وكلها تتطلب كما أسلفنا كثيراً من البراعة السياسية وكثيرا من النفقة على العدد الحربية تفوق طاقتها مع قلة عددها بالنسبة إلى عدد رعاياها فى الأطراف المترامية .

أما الامبراطورية الروسية فقد أغناها عن هذه البراعة السياسية وعن الكلفة التى لا تتناسب مع عدد أبناء الأمة الحاكمة أن هذه الامبراطورية تتولاها أمة تزيد على مائة وثلاثين مليوناً بين أبناء روسيا الكبيرة وأبناء روسيا البيضاء ، وانها فى موقعها من الأرض تتوسط بين القارتين وتلتقى حدودها وحدود أملاكها فى الشرق

والغرب والجنوب . فهى من جهة السكان أكثر عدداً من رعاياها ، ومن جهة المواصلات مستغنية عن الجهود الكثيرة التى تبذلها الأمبراطوريات لضم أوصالها والتقريب بين أطرافها ، ويضاف إلى ذلك أنها لا تبقى فى البلاد الخاضعة لها أحداً يقدر على محاسبتها وقيادة أمته فى حركة من حركات التحرر أو المقاومة ، فلا حاجة لها إلى المقدرة السياسية فى ربط العلاقات بينها وبين الأمم المغلوبة بعد تجريد هذه الأمم من ذوى الرأى والزعامة فيها . ولهذا امكنها بقليل من المشقة أن تفرض على الأمم كل ضرب من ضروب الاستعمار تختاره فى كل قطر من الأقطار على حسب الحالة التى توائمها وتخدم مآربها وتستديم لها نفوذها ، واستطاعت أن تجمع فى أملاكها الواسعة بين استعمار التوطن ، واستعمار التسلط ، واستعمار الضم والادماج ، واستعمار الاستغلال والسيطرة الاقتصادية ، وأن تلقى من المقاومة أقلها وأضعفها مع عنفها وقسوتها فى إخضاع رعاياها ، بل هى تلقى المقاومة القليلة لعنفها وقسوتها وعملها الحثيث على استئصال كل قوة صالحة لمقاومتها ، فلا تبقى فى وطن من الأوطان إلا قطعانا سائمة من الهمل الذين لا يحسون الهوان ولا يقدرون على شىء إذا أحسوه .

(١) استعمار التوطن

وليس فى أرجاء هذه الامبراطورية قطر واحد لايتعرض لنكبات الاستعمار بجميع أنواعها وضروبها . فكلها عرضة لاستعمار التوطن واستعمار التسلط واستعمار الضم والادماج واستعمار السيطرة الاقتصادية... إلا أنها تتفاوت فى المقدار مع خضوعها جميعا للسيادة المسلطة عليها ، وأكثر مايكون استعمار التوطن فى الاقاليم الاسيوية التى تتسع مساحاتها وتشبه الأقاليم التى نشأت فيها الشعوب السلافية لأول عهدها . فلاتزال أبواب الهجرة إلى تلك الاقاليم مفتحة لابناء روسيا الكبيرة وروسيا البيضاء دون غيرهم من رعايا الامبراطورية ، ولا تزال الحقوق المخولة لهؤلاء المهاجرين تزداد وتتقرر وتأخذ نصيبها على هواها ، لأنها حقوق تدعمها قوة الدولة أمام حقوق « اسمية » مبذولة لابناء البلاد الاصلاء ولا يوجد من يدعمها أو يجسر على المطالبة بدعمها .

وتدخل فى الامبراطورية الاسيوية بلاد الشركس وارمينية واذربيجان والقازاق والتركمان والازبك والجرغيز والجاديق والبشكير والداغستان وبعض القبائل التى تنتمى الى ارومتها ، وكلها — ماعدا ارمينية — بلاد إسلامية تتكلم بلهجة من لهجات اللغة التركية الطورانية ،

ولكنها تتمزق وتتفرق على هذا النحو لتشتيت شملها ومنع اتحادها ومقاومتها .

فظاهر الأمر ان الدولة الغالبة تبقى كل شعب من هذه الشعوب فى حدوده اعترافاً له بالحقوق القومية ، وباطن الأمر انها تبقيهم متفرقين متنازعين ليحتاج كل منهم إلى الدولة الحاكمة فى دفع جيرانه وفض منازعاته وليتهيأ بها المصير جميعاً إلى الفناء فى الدولة الحاكمة على توالى الأيام مع تسليط عوامل الضم والادماج عليها بغير وناء وبغير مقاومه أو بغير قدرة على المقاومة إذا وجد فى تلك البلاد المغلوبة من يريدها . ولولا هذا التمزيق والتفريق لاجتمع فى هذه البلاد شعب واحد يدين بعقيدة واحدة ويتكلم بلهجات متقاربة من لغة واحدة ويرجع إلى تراث واحد فى تاريخ الاسلاف ومعالم الأوطان .

ويؤخذ من الإحصاءات الميسورة أن نسبة الروس إلى سكان البلاد الاصلاء تزداد من سنة إلى سنة باطراد ، وإن نسبة أبناء البلاد الاصلاء تهبط كلما أرتفعت نسبة المهاجرين اليهم من أبناء الدولة الروسية ، ويستدل على هذه الزيادة بالأرقام المأخوذة من احصاءات الحكومة القيصرية ومن جداول الناخبين فى عهد الحكومة الشيوعية

ونذكر مثلا واحدا من امثلتها في بلاد القازاق التي كانت نسبة الروس فيها عشرين في المائة سنة ١٨٩٧ فأصبحت أربعين في المائة سنة ١٩١١ وأصبحت خمسة وثلاثين في المائة سنة ١٩٢٦ بعد الانقلاب الشيوعي وتوقف الحكومة الشيوعية عن تنفيذ الخطط المرسومة لاختلال أحوالها واشتغالها بالمنازعات الداخلية ، ثم عادت هذه النسبة إلى الصعود فارتفعت إلى سبعة وأربعين في المائة سنة ١٩٣٩ وارتفعت إلى تسعة وأربعين في المائة سنة ١٩٥٠ آخر السنين التي عرفت احصاءاتها ، ولعل الزيادة الآن تزيد على خمسين في المائة وتمضي في الارتفاع سنة بعد سنة على هذه الوتيرة (١)

ويكفي بغير حاجة إلى الأرقام أن نعلم نتيجة استعمار التوطن إذا قامت به دولة تزيد عدتها على مائة وثلاثين مليوناً في أقاليم متفرقة يقل سكان بعضها عن مليونين . فان هذه الدولة لا تلقى عناء يذكر في تغليب أبنائها على أبناء البلاد الاصلاء ، وبخاصة إذا علمنا أن أبناء البلاد الأصلاء لم يبق فيهم غير قطعان من الهمل السائمين تغزوهم

---

(١) راجع كتاب الامبراطورية السوفيتية تأليف أولاف كارو
Soviet Empire by Olaf Caroe

طائفة منظمة من حزب مقرر البرامج مرسوم الخطط معزز بسلطان الحكومة المسيطرة على أرجاء الامبراطورية برمتها . ويقال فى هذه الحالة أن أبناء البلاد الاصلاء هم من طبقة البروليتارية أى طبقة الصعاليك وأن أبناء البلاد الروسية الغالبية هم من أبناء هذه الطبقة فى أوطانها ، بل يقال أيضا أن هؤلاء الصعاليك جميعاً متساوون فى الحقوق « الاسمية » أمام القانون والدستور . إلا أن الحقيقة الواقعة تقلب هذه المساواة المزعومة رأسا على عقب وتضع النفوذ الأكبر فى أيدى الصعاليك الروس لأنهم حزب منظم أمام قطعان من الهمل ، ولأنهم يصولون بقوة الدولة ولا يجد أبناء البلاد الاصلاء قوة يصولون بها غير القوة التى يسمح بها السادة المتحكمون فيهم ... وينتهى الأمر إلى نقيض الغرض المطلوب من المساواة . لأنها تعطى الدخلاء الواغلين على البلاد جميع حقوق الأبناء الاصلاء ولا تعطى هؤلاء الأبناء الأصلاء حقاً صحيحاً من حقوق السيطرة والسيادة .

وكثيراً ما تحدث أذناب الشيوعية عن النفاق السياسى وحسبوه رذيلة مختكرة للاستعمار القديم ، وأنه فى الواقع لرذيلة الاستعمار كله قديمه وحديثه ، ورذيلة الاستعمار الشيوعى خاصة على أوفى نصيب .

فأى هندى - مثلا - كان يحمد للمستعمر البريطانى أن يعطى الانجليز

حقوق المساواة فى البلاد الهندية ليصبح حقهم كحق رعاياهم فى الوطنية والنيابة وتمثيل الأمة والدولة ؟ .

لقد كانت هذه المساواة تستهدف من الهنود - بحق ودراية - لكل ما فى وسعهم من النقمة والاحتجاج ، لأنها تسلبهم ولا تعطيهم بل تعطى الغاصبين حقاً مشروعاً فى البلد المغلوب الذي يغتصبونه ويتسلطون عليه .... ومع هذا يذيع المستعمرون الشيوعيون أنباء تلك المساواة المزعومة كأنها آية من آيات الحرية والسماحة وباعث من بواعث الحمد وحسن الأحدوثة بين الشعوب والحكومات .

* * *

وعلى الجملة لا يعرف فى القرن العشرين نوع من استعمار التوطن أعنف ولا أبلغ فى الاجرام من هذا الاستعمار الشيوعى فى الأقطار الآسيوية على الخصوص ، ولكنه على هذا العنف والاجرام لا يستوعب أغراض الاستعمار الشيوعى التى لم تنحصر قط فى غرض واحد ولا تزال كثيرة الشعب والطوايا فى كل مكان مع تفاوت المقادير أو الدرجات . فليست غنائم الجماليات المهاجرة كل ما يبتزه المستعمرون فى تلك الأقطار الآسيوية ، لأن هذه الأقطار كانت منذ عهد القيصرية مطمعاً من مطامع الاستغلال والابتزاز للدولة كلها وأصحاب الأموال فيها ، ولم يضعف

هذا الطمع فى عهد الشيوعية بل اشتد وتفاقم بعد ظهور مناجم الثروة المعدنية فى كثير من تلك الأقطار . وقد جنت هذه الكشوف على أبناء البلاد فكانت نقمة عليهم وبركة على المستعمرين والمستغلين ، ولم يكن نصيب البقية الباقية من أبناء البلاد الأصلاء بعد التشريد والتنكيل خيراً من نصيب السجناء فى سجونهم التى تكفل لهم الطعام والكساء وتسومهم من أجله مشقة العبيـــد الأذلاء . وأن النقمة لتصيب كل قوم على قدر الطمع فى خيرات بلادهم والغنيمة التى يجنيها المستعمرون منها ومنهم . فقد شرح صاحب كتاب « هجرة القازاق » بعض المصائب التى عاناها هذا الشعب فى سنة ١٩٤٨ من جراثر الثروة التى كشفت فى بلاده فاضطرته إلى الهجرة حيثما استطاع الإفلات من قبضة الرقباء والمتعقبين...ومن هذه الأفواج التى خرجت من ديارها عشرون ألف أسرة فارقت مواطنها ومواطن آبائها وأجدادها على غير هدى وهى لا تعلم لها مستقراً تأوى إليه ، فلم يدعها زبانية الاستعمار تنجو بأرواحها إلى حيث تلقى بهـا المقادير ، بل خرجوا وراءها بالطائرات يتعقبونها ويتصيدون أشتاتها فلم يبق منها أكثر من ربع عددها حين وصلت إلى مكان تستطيع أن تقيم فيه عند الحدود الشرقية من كشمير ، ولولا هذه البقية الباقية لاختفى أثرهم كما اختفى أثر غيرهم ، أو لاستطاعت

أبواق الدعاية أن تحسبها كلها اكذوبة من اكاذيب الاعداء كعادتها فى نفى كل خبر تنكره على نمط واحد بغير تصرف وبغير تنويع (١) .

ولو كانت الكشوف الجغرافية مما يتأتى انكاره أو اخفاؤه زمنا طويلا لانكر القوم كشوف الثروة المعدنية التى جرت هذا البلاء على تلك الشعوب المنكوبة بخيرات بلادها . ولكن الثروة المعدنية انشودة فخار يتغنى بها الشيوعيون لأنها قوام سياسة التصنيع وأساس الحضارة المثالية فى برامج الماركسيين ، وقد تغنى بها بعض انصارهم فى كتاب ألفوه عن « آسيا السوفيتية » ليقولوا أن برامج التصنيع كانت نعمة وبركة على اتباع روسيا من الآسيويين ، ومنهم شعب القازاق الذى فر من تلك النعمة ليشقى فى مجاهل الغربة باختياره ... وعن خيرات هذا الشعب يقول كتاب آسيا السوفيتية :

« أن كثيراً من العلماء فى العهد القيصرى كانوا يرون أن أواسط آسيا لا تحوى من الثروة المعدنيه شيئاً يذكر ، فجاء علماء السوفييت وأثبتوا خطأ هذا الرأى ، ويظهر مبلغه من الخطأ اذا اعلنا أن أرض القازاق أوفر فى البلاد الروسية محصولا من مستخرج النحاس والزنك

---

(١) كتاب هجرة القازاق :

Kasak Exodus by Godfrey Lias

والرصاص ومعدن الخيوط الكهربائية ، وأنها تأتى ثانية فى تقدير المستخرج من الذهب ومن عنصر المولبدنوم الذى يلغم به الفولاذ ومن القصدير ومن المرمر ، وأنها الثالثة فى المحصول المستخرج من الفحم والبترول » .

ولابد لهذه الانشودة من ذيل ينفى شبهاتها عن الذهن قبل أن يسبق إليه أن هذه الثروة المفاجئة كانت بلاء داهماً على الوطن الذى ظهرت فيه ، فإذا بهذا الذيل يتراءى على الصفحة نفسها على النحو اللازم فى الموضع اللازم .. وإذا بشاعر من شعراء القازاق يقول فى مجموعة نشرتها مطبعة الدولة بموسكو متغنيا بالقطار الذى يسمى هناك قطار الاتحاد : « ان اتحادنا قطار سريع يطير على القناطر والجسور ، ويطوى المروج الخضر بين البطاح الفيح ، وهذه أرضنا فى رخاء وشعبنا فى قوة وأباء ، حر كالسحاب فى القضاء ، وكذلك يعلم الأعداء . . . » (١) .

وعلى قارىء هذه الانشودة ان يصدق فى وقت واحد ان الهاربين من القازاق إلى كشمير قد فروا من ديارهم لانهم أحرار كالسحاب ..! وان الناظم القازاقى ينظم حراً حين ينظم على أحدث الشروط الماركسية فى أدب التصنيع !

---

(١) كتاب آسيا السوفيتية تأليف دافيز وستريجر

Soviet Asia, by R.A, Davies and A. &. Steriger

ولكن القارىء الذى يأبى ان يصدق ذلك حراً مختاراً يستطيع ان يصدق راغماً أنه امام استعـــمار كريه يفر منـه من يفر ويبقى من بقى تحت وطأته عاجزاً عن الشكوى عاجزاً عن السكوت مطالباً بأن يفخر ويزدهم حيث يبـــاح لغيره ان يفزع ويبكى ،ومثل هذا الاستعمار لايأتى ثالثاً ولا ثانياً فى بلاء التوطن ولا فى بلاء التسلط ولا فى بلاء الاستغلاء والتسخير ، بل يأتى بينها جميعاً أولاً بغير نظير .

* * *

وغنى عن القول ان استعمار التسلط أو « لامبريالزم » لايسمى بهذا الاسم لان الباعث عليه محصور فى طلب السلطة والغلبة على الامم بغير فائدة يفيدها المستعمر من وراء الغلبة عليها ، سواء نظرنا إلى الاستعمار القديم أو إلى استعمار العصور المتأخرة ، فمهما يكن من ولع الأقدمين بالفتوح طلبا للمجد وطموحاً إلى العظمة والسيادة فهذه الفتوح لم تخل قط من منافعها المـادية أو الحربية ؛ وأقلها نفعاً مايكون الباعث عليه حمـاية الحدود واقامة الحواجز بين الدولة وجيرانها القادرين على قتالها .

فاستعمار التسلط ينطوى على ضروب الاستعمار الأخرى ومنها الاستغلال والتسخير ، ولكن يتميز باسم خاص بين أسماء الاستعمار للدلالة على كثرة الأملاك وسعة الأطراف. فلا تطلق كلمة الامبراطورية

على الدولة التى تسيطر على قطر واحد أواقليم صغير من الأرض تستغله وتسخر أبناءه ، وإنما تطلق هذه الكلمة على كل دولة كثيرة الأملاك واسعة الاطراف يخضع لها صنوف من الرعايا يختلفون احيانا بالجنس واللغة أو يختلفون بالموقع الجغرافى والمعالم السياسية . ولهذا كانت روسيا الشيوعية من دول الامبريالزم لانها تبسط حكمها على أصقاع مترامية الاطراف بين القارتين الاوربية والاسيوية. ومن البلاد التى تخضع لنفوذها فى اوربة بولونية وشيكوسلفاكيا وبلروسيا — أو روسيا البيضاء — واستونيا ولاتفيا ولتوانيا والبانيا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلاندا وطائفة من الاقاليم المنعزلة تسميها بمناطق الحكومة الذاتية ولا تعترف لها بالاستقلال الذى يخولها الانابة عنها فى المجامع الدولية.

وهى - مع هذا - تتبع فى سياسة الاعتراف للأمة بالاستقلال نفس الخطة التى اتبعها الألمان من قبلها - منتفعين بدعوى تقرير المصير فى تحقيق مآربهم الامبراطورية ، فربما اعترفت باستقلال البلد لتعزله من دولة أخرى أو لتنتفع بصوته فى المجامع الدولية أو لتوقع النزاع بينه وبين جيرانه وتضطرهم جميعاً إلى الاستعانة بها فى فض هذه المنازعات ، وقد عمد الألمان بعد الحرب العالمية الأولى إلى دعوى تقرير المصير فخلقوا بين روسيا وبولونية أمة صغيرة سموها بالروس البيض *White Rutheinans*

ليفصلوا بينها وبين بولونية من جهة ويفصلوابينها وبين روسيا من جهة أخرى . وكذلك فعلت روسيا الشيوعية فى سياستها نحو هذه الأمة الصغيرة بعينها ، فانها بعد أن اعترفت سنة ١٩٢١ فى معاهدة ريجا Riga بحق بولونية فى حكم شطر من هذه البلاد عادت فى سنة ١٩٣٩ فاغتنمت فرصة الحرب لتجعل بلاد هذه الأمة وطنا مستقلا ينفصل من بولونية ويدين للشيوعية بالطاعة من وراء نقاب هذا الاستقلال المزعوم (١) .

ولا توجد الآن فى العالم دولة استعمارية يخضع لسيطرتها الفعلية عدد من الأمم مختلفين فى اجناسهم ولغاتهم كهذا العدد الذى يخضع لسلطان الاستعمار الروسى بين تيوتون ولاتين ومغول سلافيين وغير سلافيين ، ولا يوجد بين المستعمرات أمة مسلوبة الرأى فى السياسة العالمية والسياسة الداخلية كهذه الأمم التى لم تجسر واحدة منها قط على الافضاء فى المجامع الدولية برأى هام يخالف رأى سادتها المسلطين عليها.

وبيت القصيد فى جميع هذه الأنواع من الاستعمار إنما هو الاستعمار

---

(١) كتاب بلوروسيا أو أمة تخلق تأليف نقولاس فاكار .
The Making of a Nation by Nicholas Vakar

الاقتصادى أو استعمار الاستغلال والتسخير سافراً أو متنقباً ينقاب مهلهل لايخفى من ورائه سراً عن ذى بصر مفتوح .

وفى وسع كل دولة مستعمرة أن تغالط فى حقيقة نياتها إلا الدولة التى تدين بالمادية الاقتصادية وتؤمن بأن الثروة الاقتصادية هى الزمام الذى يقبض به الحاكم على قياد المحكومين. فمن اللغو أن يزعم المستعمرون الروس أنهم يبسطون نفوذهم على تلك الارجاء ثم يتركون زمامها فى أيد غير أيديهم ويجعلون شئون الثروة الصناعية على التخصيص بمعزل عن مشيئتهم مستقلة عن برامجهم وتوجيهاتهم ، فليس لرغبة الروس فى استبقاء تلك الارجاء تحت نفوذهم من معنى مفهوم غير أنهم يستولون على زمام الاقتصاد هناك ويحولون بين أبناء البلاد والقدرة على مخالفتهم فى شئون السياسة العالمية وشئون السياسة الداخلية على السواء .

وخطة روسيا فى علاقتها بهذه الأمم الخاضعة لها لا تختلف ذرة من خطط المستعمرين حيثما تركزت السياسة كلها فى التضحية بمصالح المغلوبين خدمة لمصالح الغالبين ، وكلما كانت هناك مصلحة مقدمة على غيرها فهى مصلحة الدولة الساندة لا مصلحة الاتباع المسخرين

وخذ لذلك مثلا خطة الدولة الروسية فى مسألة التأميم وهى من أمهات المسائل فى البلاد الشيوعية بل هى أم المسائل جمعاء . بغير استثناء ... فيولونية

وتشكوسلفاكيا ويوغسلافيا شأنها كشأن رومانيا والمجر وبلغاريا وفنلاندة تسمى فى العرف الشائع بالتوابع أو الكواكب التى تدور فى فلك روسيا السوفييتيه *Satellites* .... إلا أن بولونية وتشكوسلفاكيا ويوغسلافيا كانت فى الحرب إلى جانب الروس فلم يكن فى مقدورهم أن يدعوا عليها حقاً من حقوق التعويض والغرامة كما أدعوا على رومانيا والمجر وبلغاريا وفنلاندة التى كانت إلى جانب النازيين . ولهذا عجلوا بسياسة التأميم فى البلاد التى لا مطمع لهم فى إغتصاب مصانعها ونقلها من بلادها ، واخروا تنفيذ هذه السياسة فى البلاد الأخرى ريثما يفرغون من « عملية » التجريد والاغتصاب باسم الغرامة والتعويض ، فنقلوا ما نقلوا من مصانعها وآلاتها وتركوها مقفرة من موارد الثروة الصناعية إلى أن تنتظم هذه الموارد باشرافهم ومشاركتهم كرة أخرى ، وهم هنا يعاقبون الشعوب بذنب السادة المسخرين لها فى الحرب على غير إرادتها ، وتصغى اليهم فلا تسمع منهم دعاية يلغطون بها غير دعاية الغيرة على الشعوب وتبرئتها مما يجنيه السادة باسمها من الجرائم والذنوب (١) .

---

(١) كتاب توابع ستالين فى أوربة تأليف ايجايل جلكشتين
Stalin Satellites in Europe by YGAEL Gluckstein

ولا يفهم من هذا أن البلاد التى تعجل فيها التأميم كانت أسعد حظاً من البلاد التى تأخر فيها التأميم إلى ما بعد استنزافها بالتعويضات والغرامات . فانهم فى الواقع أهوا مرافقها العامة وأحالوها شيئاً فشيئاً إلى نظام الادارة الفردية الذى عمموه فى ظل الشيوعية وأرادوا به أن يكون تدبير الصناعة بأيدى أفراد معدودين يتلقون الأوامر من سادة الكرملين ولا يملكون المراجعة فيها . وقد بدأت هذه السياسة فى روسيا منذ أكثر من عشرين سنة وسرت إلى البلاد الخاضعة لها بعد الحرب العالمية الثانية ، وقالت صحيفة الحزب الشيوعى « برڤدا » فى عددها الصادر فى السابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ أن لجنة الحزب المركزية اذاعت على العمال منشوراً دعتهم فيه إلى اجتناب التدخل المباشر فى الادارة الفردية وأن يساعدوا هذه الادارة على سرعة العمل وتحسين الانتاج .. وأكثر ما بقى من المرافق غير مؤمم فالمرجع فيه إلى الشركات المتساوية أى الشركات التى يتساوى عدد أعضائها من الروس وأبناء البلاد الاصلاء ، وقد أخذت هذه الشركات تقل وتزداد بعدها حركة التأميم على أثر اشتداد الأزمة الاقتصادية فى أوربة الوسطى وصدور القرار بالاجماع من حكومة شيكوسلفاكيا يقبول تبادل التجارة مع أوربة الغربية ، وما صدر هذا القرار فى الرابع من شهر يوليه سنة ١٩٤٧

حتى بادر الكرملين باستدعاء جوتوالد ومازاريك من رجال الحكومة التشيكية وأجبروهما على إلغاء القرار فى العاشر من الشهر نفسه ، وكان ذلك مقدمة للتعجيل بحركة التأميم فى أوربة الوسطى وأوربة الشرقية لأنه هو الذريعة الوحيدة إلى تغليب رأى السلطة على رأى الخبرة والمشورة فى برامج التصنيع .

وحدث ما لابد أن يحدث من سوء الحال فى البلاد التى ذهبت مصالحها هدراً فى سبيل مصالح المستعمرين أو فى سبيل مآرب الحاكمين الذين يخضعون روسيا وما حولها لمشيئتهم العاتية بغير مراجعة ولا رحمة ....

وحدث ما لابد أن يحدث من جراء سوء الحال وتعطل الأعمال والعمال ، فاستعد ولاة الأمر لهذه المشكلة بعدتهم التى لا عدة لهم غيرها : وهى القمع من جهة ، واتهام المتذمرين الثائرين بالرجعية والحنين إلى عهود الارستقراطية وحكومات النبلاء والأمراء المستبدين ! . . وإن كان القائمون بالثورة من عمال المتاجم والمصانع ومن الشبان الذين نبتوا فى إبان الثورة الاجتماعية بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين ! .

ولقد كان التهويل باسم الرجعية والارستقراطية من اللوازم التى لاغنى عنها لذلك الاتهام الحاضر الذى يردون به على كل ثورة وكل حركة من

حركات التذمر والاحتجاج على سيئات الإدارة الصناعية أو الزراعية .
ومن يسمع بهذا التهويل يخيل إليه أن حركات الإصلاح الصناعى أو الزراعى لم تكن شيئاً معهوداً قبل دخول أوروبة الشرقية وأوروبة الغربية فى حوزة الكرملين أو حوزة الاستعمار الأحمر بمختلف أسمائه ودعاواه . إلا أن الواقع أن الإصلاح الزراعى قد بدأ فى أوروبة الشرقية بصفة خاصة قبل ابتدائه فى صميم البلاد الروسية . إذ لا يخفى أن بلاد الصرب والبلغار ورومانيا وسائر بلاد البلقان كانت تابعة للدولة آل عثمان فى الأستانة ، وكان أصحاب الاقطاع فيها من ولاة الترك ورؤسائهم الذين اقتطعوا الأرض الواسعة فى تلك البلاد وملكوها مقيمين فيها أو موكلين عنهم من يزرعها لحسابهم من مستأجريها ، فلما استقلت بلاد البلقان وما جاورها عن الدولة العثمانية كان هذا الاستقلال بداءة الثورة على الاقطاع وتوزيع أرض الملاك الاقطاعيين على الفلاحين . وقد تبين من دراسات المختصين لحالة الملكية الزراعية فى شرق أوربة أن زوال عهد الاقطاع فيها قد تلاه فجأة توزيع الأرض على صغار الملاك ، ثم تتابعت بعده القوانين التى تنص على تحديد الملكية الزراعية إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، فأصدرت حكومة ستامبولسكى فى بلغاريا (١٩٢٠ - ١٩٢٣) قوانين تمنع زيادة الملكية الزراعية على ثلاثين

هكتاراً أى نحو سبعين فداناً ، وتبين من الإحصاء الرسمى فى يوغسلافيا أن نسبة الملاكين الذين كانت لهم أرض تزيد على خمسين هكتاراً أقل من عشر عدد الملاك . ثم صدر قانون أغسطس سنة ١٩٤٥ بتحريم زيادة الملكية الفردية على خمسة وأربعين هكتاراً . ويؤخذ من الإحصاءات التى صدرت بإشراف عصبة الأمم أن بلاد البلقان جميعاً كانت على هذا المثال فى تشريعات الملكية الزراعية[1] وتشبهها فى هذا التطور بلاد أوربة الوسطى التى كان ملاكها الكبار من الألمان والروس، ثم صودرت أملاكهم بعد الحرب العالمية الأولى ... فإن الثورة على الإقطاع فيها ليست بالحديثة ولا هى من مبتكرات الدولة الشيوعية، ولا يختلف الأمر كثيراً فى أطوار الملكية الصناعيـــة ، فان معظم الصناعات قد نشأ فى تلك البلاد بإشراف الحكومات لقلة عدد المشتغلين بالصناعة الضخمة من أصحاب الأموال الأفراد ولصعوبة قيام الشركات الكبرى فى بلاد عاشت على الزراعة منذ زمن بعيد ، فلما قامت فيها الصناعة بإشراف الحكومات لم يكن أيسر من تحويلها إلى ملكية الأمة ومنع التضخم فى الثروات الفردية .

---

(١) يراجع كتاب ويلبرت مور عن الاقتصاد والسكان فى أوروبة الشرقية
Econ omic Demography of Eastern and Southers Europe by Wilbert Moore

فالتهويل باسم الرجعية والاقطاع فى أوربة الوسطى وأوربة الشرقية إنما هو بضاعة مزجاة من بضائع الدعاية التى لا تعرف لها جواباً ترد به على حركات التذمر والشكوى غير ذلك الغول الميت أو الغول المحتضر الذى دخل فى دور النزع قبل قيام الثورة الشيوعية . ومهما يكن من خطره فما هو بالحجة الصالحة لتفسير كل شكوى واحتكار كل علة ، والبراءة من كل تهمة يرمى بها نظام كله عرضة للسخط والاتهام .

* * *

ان مؤلف الرسالة التى نقدم لها بهذه الكلمة قد تولى شرح الموقف فى أوربة الشرقية من وجهة الاستعمار الاقتصادى دون غيره من ضروب الاستعمار المسلط على الامبراطورية السوفيتية من أقصاها فى المغرب إلى أقصاها فى المشرق ، ولكن الناحية التى قصر عليها المؤلف دراسته نموذج صادق لجملة النواحى كما تبدو فى الجانب الاوربى على الأقل ، وهى مثل يقاس عليه فيما يجرى وراء أورية بين الامم الاسيوية التى لا فرق بين الطمع فى ابتلاعها من الناحية الاقتصادية أو الطمع فى ابتلاعها من الناحية القومية ، لأن ضمها وضم صناعتها يبتدئان معانى آونة واحدة ، ولا ينفصل هذا الطمع عن ذاك فى نفوس الطامعين .

* * *

فمن الطبيعى ان يدور البحث على الاستعمار الاقتصادى وآفاته المتفرعة عليه فى رسالة تتحدث عن اوربة الشرقية ولا تجاوزها إلى ماوراءها من أقطار الامبراطورية الحمراء . لان المستعمرين الحمر قدوجدوا فى بينات اوربة الشرقية صناعة حكومية أو شبيهة بالحكومية يستولون عليها فيتاح لهم أن يستولوا على زمام السلطة فى بلادها .ولكن هؤلاء المستعمرين الحمر لم يقنعوا بالاستعمار الاقتصادى فى امبراطوريتهم الاسيوية لأنهم قد بدأوا هناك من الألف والباء فاتجهت مقاصدهم من البداءة إلى سياسة من سياسات الضم والاستلحاق لاتقنع فى النهاية بما دون الادماج التام أو بما دون افناء القوميات الأسيوية من فرعها إلى قدمها فى غمار القومية الروسية المتغلغلة فى أحشائها

ولولا الحاجة إلى الايدى العاملة وصعوبة القضاء على ملايين من الخلق ذوى بأس وحمية لاتجهت مقاصد القوم إلى الإبادة والاستئصال ولم يقنعوا هنالك بالضم والاستلحاق . فلما نظروا أمامهم إلى ولايات متفرقة تتراوح عدة الولاية منها مابين المليون والملايين العشرة أو الاثنى عشرة زادوها تفرقا وتمزيقا لتيسير التهامها واهتضامها وعمدوا إلى ملاحها البارزة التى تعصمها أن تنمحى فى غمار الغاصبين فقرروا محوها وتعفية آثارها، وبخاصة ماكان منها متصلا بالعقيدة واللغة . وكلتاهما فى شعوب آسيا الوسطى والغربية

قوة لايستهان بها،لولا ثقة المستعمرين بطغيان الكثرة الساحقة على القلة المبعثرة بغير حام يذود عنها ولا نصير يستمع اليها .

ولا يعرف التاريخ الأسيوى - بلا استثناء جنكيزخان وتيمورلنك - طغياناً بلغ من الوحشية والشناعة مابلغه طغيان الاستعمار الأحمر على هذه الأمم الصغيرة التى لاذنب لها إلا أنها تخالف المسيطرين عليها فى عقيدتها ولغتها.فقدأمعنوا فيها قتلا وتشريداً وانتهاكا للحرمات المقدسة على ديدنهم فى الوحشية التى يزيدها هنا ضراوة وعنفاً أنها منصبة على أناس يعادونهم فى عقيدتهم وعصبيتهم كا يعادونهم بسياستهم ومطامعهم . فكان تلويث الحرمات المقدسة فى تلك البلاد الاسلامية شهوة من شهوات العداء والنقمة وخطة من خطط الفتح والاستعمار ، وكان احراق المصاحف وكتب الاحاديث بعض المراسم المقررة فى تلك المذابح الجهنمية إشباعاً لنقمة التعصب الاعمى وتحقيقا لمآرب السطو والاستغلال فى آن .

ويسير جدا على القوم أن ينكروا هذه الفظائع التى اقترفوها داخل حدودها المغلقة واستطاعوا أن يعزلوا بينها وبين العالم بحواجز الاستبداد فوق ما أحاط بها من حواجز الارضين والبحار . ولكن الذى لايتيسر لهم أن ينكروه هذه الوقائع التى تتسرب وراء حواجز

الاستبداد ووراء حواجز الجبال والرمال ، وهذه الوقائع التى تثبتها عليهم أقوال صحفهم ووثائقهم المنشورة بأيديهم ، والى هـــذه الوقائع نحيل من شاء ليعرف منها قليلا مشهورا يتم على كثير مستور .

كان حجاج آسيا الوسطى يفدون الى الأماكن المقدسة كل عام بعشرات الألوف لاينقطعون عن الحج حتى فى ابان طغيان الدولة القيصرية ، وكانوا يعرفون بين المسلمين باسم حجاج بخارى أو الحجاج البخاريين . إذ كان اسم البخارى وحده كفيلا بالحرص على ارتياد ارض الرسول لأنه الاسم المقرون بالاحاديث النبوية على ألسنة جميع المسلمين... فاذا بهؤلاء الحجاج الحريصين على فريضتهم يغيبون عن الموسم بعد الثورة الشيوعية ويدوم انقطاعهم زهاء ثلاثين سنة ، ثم يؤذن لفئة منهم بالظهور فلا يزيد عدد الحجاج منهم فى السنة على ثلاثين أو أربعين وقلما يبلغون المائة فضلا عن الألف والآلاف . وليس من المعقول أنهم كفروا بدينهم بين عام وعام ، ولكن المعقول أنهم يلاقون الهول الذى لا قبل لهم به دون فريضتهم العزيزة عليهم .ومن يصنع ذلك صدا عن فريضة يتسامع الناس أخبارها ، ولا تخفى دلائل منعها ـ خليق أن يصنع أضعاف ذلك صداً عن الشعائر التى لا يسمع لها صوت بعيدا عن عقر دارها .

* * *

أما العمل على محو معالم القومية فى هذه الشعوب وقطع كل علاقة حية بينها وبين تراث اللغة والتاريخ فيها — فهو زبدة المبادىء التى تعلنها قرارات الحزب وتذيعها الصحف الرسمية ويشرحها فى الكتب والمنشورات علماؤها المجندون لتنفيذ برامجها الثقافية ، وما من كتاب يؤذن له بالخروج من المطبعة فى أرجاء روسيا إلا وهو بمثابة الامر الحكومى المفروغ من تحضيره ومراجعته وتطبيقه على مشروعات الستين كما تقررها نظم الدولة بعد أن تفرض العقوبة الصارمة على من يخالفها .

ولقد سلك المستعمرون الحمر مسلك جميع المستعمرين فى تخدير ضحاياهم بالوعود الكاذبة و تغريرهم بزخارف الأباطيل ومحرجات الإيمان على نية الحنث بها من اللحظة الأولى . فأعلنوا فى أوائل أيام الانقلاب الشيوعى بلاغاً طنانا وجهوا فيه الخطاب إلى الشعوب الأسيوية الإسلامية بصفة خاصة وأكدوا فيه لكل شعب منها أنه آمن بعد اليوم على حريته التامة فى معتقداته وشعائره وعاداته ومقومات العرف واللغة بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصرى وزوال عهد الحجر والطغيان بزواله إلى غير رجعة ، وما هو إلا أن هدأت الثائرة واستقرت الدولة الجديدة فى مراكزها حتى عادت القيصرية فى أشنع صورها وحل الخوف محل

الأمان فى كل وعد من وعود الحرية والطمأنينة ، وقال قائل من أمناء تلك الشعوب المهاجرين فى حديث يمتزج بالسخر الأليم ان المخدوعين المساكين كانوا إذا أرادوا أن يعرفوا مواضع المصادرة المنتظرة رجعوا إلى بقية الشعائر التى وعدوهم باحترامها فعلموا أنها هى الهدف المقصود بالضربة التالية ... ولم يكن هذا القائل الساخر مازحا فيما وصفه من تقدير قومه وان ساقه فى مساق التهكم والسخرية . فإن الشعائر المقدسة قد أصبحت فى الواقع مرادفة للجرائم المحرمة على تلك الشعوب . ، . حتى الشكوى من القيصرية فى إبان طغيانها أصبحت دليلا على التشبث بالنعرة القومية ، فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها .

وتساوى فى هذا الاضطهاد جميع الشعوب الاسلامية من كان منهم فى أقاليم أوربة ومن كان منهم فى أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى . فصدر الأمر فى القرم بتقسيم اللغة التى يتكلمها القرميون إلى ثلاث لهجات وضبط كتابتها على حسب الأبجدية الروسية لا على حسب الأبجدية العربية ، ونادى وزير المعارف ـ الكسندروفتش ـ فى المؤتمر الشيوعى السابع عشر بوجوب تطهير هذه اللهجات وإدخال الكلمات الروسية فى موضع الكلمات المحذوفة منها ، وشاعت سياسة التشتيت والتمزيق فى اللهجات بل فى فروع اللهجات لتيسير محوها وتصعيب استخدامها

فى مقاصد العلم والثقافة وتعجيزها عن الثبات — من ثم — أمام اللغة الروسية التى اجتزفتها جميعاً فى معاهد الدراسة ودواوين الحكومة ومنشورات المطابع والمجالس السياسية . وقد كان ستون مليوناً من أبناء الشعوب الآسيوية يقرأون صحيفة « ترجمان » التى كان يصدرها المصلح الكبير اسماعيل غصبرالى المعروف فى القاهرة ، وكانوا على اختلاف لهجاتهم يفهمونها ويتداولونها ، فأمر المستعمرون الحمر — أنصار حرية الشعوب — بمصادرة كل صحيفة من قبيلها واعتبارها داعية إلى النكسة والرجعية والتشبث بالنعرة الوطنية ... وصادروا مع مصادرتها كل سيرة من سير البطولة يتغنى بها أبناء الشعوب المغلوبة ، لأن ثورة الأبطال الوطنيين فى وجه القياصرة إنما كانت ثورة على الأمة الروسية التى ساقت الحضارة والمعرفة إلى بلاد تلك الشعوب ..!

وحاقت اللعنة بالأدباء الذين يذكرون أوطانهم بالثناء ويفخرون بالانتماء اليها ، فاتهم الشاعر التركمانى جمعة مرادوف بالنكسة الرجعية لأنه نظم قصيدة عنوانها « بلدى تركمانستان » عابتها صحيفة الحزب (تركمانسكايا اسكرا) *Tunkmenskaya Iskra* فى عددها الصادر فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥١ وقالت فى انتقاد الشاعر « إنه لا يختص التركمان السوفيتية بالكلام بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ويصورها

كأنها جنة على الأرض . . . وإنما ينبغى على الشاعر أن يتحدث عن زكان السوفيتية لأنها إحدى الجمهوريات الأخوات فى داخل الاتحاد السوفيتى العظيم »

وسبقت الأمم غير الروسية إلى عقد مؤتمر تعلن فيه ولاءها للدولة المستعمرة وسخطها على دعاة التجديد والإحياء فى الحركة الوطنية . فخطب باجيروف نائب الرئيس بذلك المؤتمر قائلا : « ان رئاسة اتحاد الكتاب السوفيتيين رأت حوالى سنة ١٩٤٨ ... ان تعقد فى موسكو اجتماعاً لتنظيم المناقشة فى مسألة القومية التى ينتمى اليها الكتاب السابقون ومؤلفاتهم غير مستثنية من ذلك أمثال ذلك الكتاب الرجعى الذى ينطوى على عداوة الشعب وتسميم الافكار يسموم الجامعة الاسلامية نعنى كتاب ديدى كركوت *Dede korkut* ... ولكن هذا الرأى قدتقرر رفضه فى لجنة الحزب المركزية وعرفنا بفضل هذه اللجنة طوايا الكتاب السيئة وأن نميط اللثام عن حقيقته الرجعية . . »

وتعقب النقاد — الرسميون — أناشيد البطولة والوطنية فى الامم الخاضعة للدولة المستعمرة فوصموها بخبث النزعة وسوء الطوية وقال باجيروف المتقدم ذكره فى عدد يوليو سنة ١٩٥٠ من مجلة بولشفيك وهو يتحدث عن « شامل » بطل القوقاز الذى اشتهر بثورته على القيصر

قبيل منتصف القرن التاسع عشر ؛ «إننا اذا أردنا أن نفهم فكرة صحيحة عن حركة شامل هذه فلنذكر انها كانت حركة دينية وأنها أشد أعراض النزعة الاسلامية نكسة وعداوة» ..

وقالت مجلة «كومونست» فى عدد يناير سنة ١٩٥٣ «ان المؤلف جعفروف الذى كان يظن سنة ١٩٤٤ أن الحركات القومية التى ثارت على روسيا خلال سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩١٦ كانت من حركات التحرير الوطنى قد عاد فأدرك خطأه وكتب فى سنة ١٩٥٢ أنها كانت حركات اقطاعية متعصبة» ... ومضت المجلة تقول ؛ «ان هذا الكتاب — أى كتاب جعفروف — يتعمق فى البحث عن جذور العلاقة الودية بين أمم آسيا الوسطى وبين الأمة الروسية العظيمة ويلفت النظر على نحو خاص إلى الدلالة التقدمية التى يدل عليها ضم هذه الامم الى الحظيرة الروسية . . . .. فان هذا الضم قد أتاح لها فرصة المساهمة فى ثقافة روسيا العظيمة . . »

وصحيفة الدولة «براڤدا» تردد هذه الاقوال وتصرح فى السابع من اكتوبر سنة ١٩٥٢ أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تمنع سموم الجامعة الاسلامية.... ثم تصرح فى الثالث عشر من فبراير سنة ١٩٥٣ بأن

المؤرخ سليمانوف مضلل كاذب لانه يزعم ان الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة ، وتصرح صحيفة الدولة الأخرى «ازفستيا» قبل ذلك (فى الثانى من سبتمبر ١٩٥١) ببطلان الدعوة التى يجنح اليها مجمع العلوم ببلاد الازبك لاحياء كتب السلف الاسلامية وادخار مخطوطاتها ومتفرقاتها :

وقد بدأت هذه السياسة منذ الأيام الأولى التى آفاق فيها سادة الكرملين من شواغل حربهم الداخلية . ولكنهم كانوا يراوغون فى تنفيذها بين المصانعة والخديعة أو بين القمع والحيلة ، حتى كشفوا القناع عنها حوالى سنة ١٩٣٠ فدفعوا أذنابهم إلى المؤتمر الذى سموه بالمؤتمر التاريخى فى سمرقند ليعلنوا البراءة من الوحدة القومية .. أو ليعلنوا بعبارة أخرى أنهم - أبناء آسيا الوسطى - اشتات متفرقون وليسوا بالعنصر الواحد فى الأصل ولا فى اللغة ولا فى التراث القديم ، وقد اجتمع المؤتمر سنة ١٩٣٥ واصدر قراره — العلمى — بوجوب تصحيح النظر إلى تلك الوحدة المزعومة بين القازاق والتركمان والجرغيز والأزابكة وجيرانهم الآخرين .... ولسنا ندرى كيف يطمع دعاة الاستعمار الأحمر فى تصديق هذه الاضحوكة عن أناس طائعين مختارين يشدون رحالهم إلى بلد واحد ليسوغوا للغاصب تمزيقهم وانكار أصولهم وإبتلاعهم بعد ذلك اشتاتا مبعثرين .

ويجوز تصديق هذه الأضحوكة لو كانت المسألة هنا مسألة مبدأ في المذهب الماركسي يطبقونه في جميع الاوطان وبين جميع الشعوب... أو لو كان الشعور الوطني على مذهبهم شعوراً بغيضاً لديهم يحرمونه على الأمم الحاكمة كما يحرمونه على الأمم المحكومة ، ولكن الواقع في الامبراطورية الروسية على نقيض ذلك من طرفيه . فان العصبية الوطنية مفروضة مشكورة في روسيا حيث تكون مذمومة مدحورة في البلاد الخاضعة لسلطانها، وكلما اشتد ولاة الأمر في تحريم العناية باللغة والتراث القومي في قطر من الأقطار الأسيوية قابلوا ذلك بالحماسة الروسية للعنصر واللغة والثقافة في اضيق حدودها ، ولم يصنع النازيون والفاشيون في توسعهم المرذول بالمفاخر المحتكرة للجنس الآري والمآثر الموقوفة على الجرمان وأسلافهم دون سواهم من أمم العالمين بعض ما صنعه دعاة العظمة السلافية - بل عظمة الجنس الروسي على حدة - بين سائر أجناس السلاف الحاضرين والغابرين . فانهم ردوا إلى هذا الجنس فضلا واحداً لا منازع لهم فيه يدعون به السبق إلى كل اختراع والانفراد بكل فكرة قبل انتشارها بين بلاد الحضارة الحديثة .

ففي سنة ١٩٤٩ منح مجلس الوزراء جائزة الدولة للمؤرخ

ريباكوف *Rybekov* لأنه زعم فى كتابه عن صناعات روسيا القديمة أن روسيا كانت مصدر المعارف الصناعية التى انتقلت منها إلى الغرب واستفادت منها بولونية وبوهيمية وما جاورها ...

وصحيفة الدولة تحي قصة كاترين الثانية فى الصور المتحركة فتعيد قصيدة شاعرها الذى وصف ذلك العهد بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجائحة للعبقرية الروسية فى ميادين القتال .

وقادة روسيا الذين خدموا القياصرة تعاد ذكراهم المئوية أو الخمسينية لكل مناسبة عارضة أو لغير مناسبة على الاطلاق غير أرقام التواريخ فيشيد كاتبهم شاتاجين *Shatagin* فى شهر مايو سنة ١٩٥٠ بذكرى انقضاء مائة وخمسين سنة على وفاة القائد سفيروف *Suvorov* ويحي هذه الذكرى الخالدة بمقال مسهب استغرق أكثر من عشر صفحات فى العدد التاسع من مجلة البولشفيك .

والدولة هى التى تتولى نشر كتاب كوفاليف *Kovalev* الذى يعيد معظم المخترعات الى سابقة روسية ، ويقول فيه أن لومنسوف الروسى سبق لافوازية الى قانون بقاء المادة والطاقة ، وأن بتروف سبق جميع العلماء العالميين فى كشوف الصناعة الكهربية وأن لينز ويا كوبى سبقا

المخترعين والكاشفين الى استطلاع أسرار المغنطيسية الكهربائية ، وأن بلزنوف سبق واطس الى اختراع القاطرات البخارية ، وأن يابلخوف ولوديجين سبقا المخترعين الى الاهتداء لنور الكهرباء بأكثر من ثلاثين سنة ، وأن بوبوف هو مخترع جهاز الاذاعة حوالى سنة ١٨٩٥ ، وأن بريديجين سبق الفلكيين الى رصد حركات المذنبات ، وأن لوباشفسكى هو صاحب الآراء الحديثة التى جدد بها علوم الرياضة وأنشأ بها هندسة تنافس هندسة اقليدس القديمة . . . وأن علماء الروس بالايجاز قد سبقوا جميع العلماء والمخترعين فى ميادين الصناعة العصرية والعلم الحديث . .

وكلما اجتمع مؤتمر المعلمين الذى يوحى بسياسة التعليم الى المدارس كافة فى أنحاء الامبراطورية — نادى بوجوب تعليم الدروس جميعاً باللغة الروسية . . . وصحيفتهم المخصصة لاذاعة هذه السياسة هى التى نشرت خلاصة هذه القرارات فى السابع من شهر ابريل سنة ١٩٥٤ فقالت فى الفصل الافتتاحى « ان الاكرانيين وأمناء روسيا البيضاء واللاتفيين والاستونيين والقازاق والازابكة والشراكسة والأرمن والتتر الخ الخ يدرسون بحب وشغف لغة أختهم الكبرى الأمة الروسية العظيمة »

وهـــذه الصحيفة هى التى نشرت فى الثلاثين من شهر يونيو سنة

١٩٤٣ برنامج التعليم فقالت : « انه من اللازم فى السنوات الباكرة ان يتعلم الاطفال محبة كل ماهو وطنى من تربة الوطن .... وان نغرس فى نفوسهم الفكرة التى تجلب دموع الفرح إلى أعينهم عند الاشارة إلى هذه الأم الكبرى وتسرى بالقشعريرة إلى الدم كلما مر بالذهن خاطر يهددنا بفقدها »

ولنذكر أن هذه الفترة بين سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٥٤ تتناول سياسة العهدين فى حكومة الدولة الروسية: عهد ستالين فى أوجه وعهد خلفائه الذين نقضوا من سياسته ما نقضوا غير هذه النزعة الامبراطورية التى تعالج برامج الاستعمار علاجا يمكن الحاكم المتسلط على الامبراطورية من اخضاعها لقبضة واحدة فى عاصمة واحدة: هى عاصمة الدولة الحاكمة

* * *

فهذه السياسة التى تحرم الحماسة الوطنية فى مكان وتقدسها فى مكان آخر ليست من مبادىء المذهب ولا من أصول المادية الماركسية ، وإنما هى لون إمن ألوان الاستعمار الكثيرة يدين بها المتسلطون الشيوعيون ، ويتبعون فيها على هذه الصورة الخبيثة شر ضروب الاستعمار فى أشأم عصوره ، لأنها استعمار يقود إلى الفناء ويلغى وجود الأمم المنكوبة

به كي لا تقوم لها قائمة بعد جيل أو جيلين ، وإذا اقترنت به مذابح الإبادة التي تقضي على كل رأس يرتفع بالمعارضة أو المناقشة باسم القضاء على الطبقات العليا والوسطى فقد خرج الأمر من كونه استعماراً يساس به الآدميون إلى حالة من الحيوانية لا فرق بينها وبين القطعان السائمة من العجماوات .

* * *

ولا أدل على الجهل بالشيوعية في نطاقها الواسع الخفي من أن ترى بعض الناس يذكرون شرها ويحسبونه شراً جديداً يعزل عن شرور الاستعمار قديمه وحديثه ، وتراهم يقرنونها بالاستعمار على الدوام كأنهما شيئان متقابلان لا يتلاقيان في غرض ولا يتفقان في وجهة مشتركة. وظاهر لا حاجة به إلى الإظهار أن الشيوعية دعوة من الدعوات الاجتماعية تحتوي أموراً كثيرة ليست في الاستعمار بجميع أنواعه ، ولكن الأمر الذي لم يظهر كل الظهور أن الاستعمار لم يوجد فيه عيب قط خلت منه الشيوعية بنظامها القائم في العصر الحاضر ، وان الامبراطورية الشيوعية تباشر اليوم ألواناً من الاستعمار الساقر والمستتر كأشنع ما عرف الناس في عهودهم الغابرة والحاضرة ، سواء منها استعمار التوطن واستعمار التسلط واستعمار الابتزاز والاستغلال واستعمار الضم والافناء .

وهذه الرسالة قد عنيت باستعمار واحد فى رقعة واحدة من الأرض — وهو الاستعمار الاقتصادى فى الأقاليم الأوروبية الشرقية — فأجملت الكلام عليه اجمالا كافيا للألمام بخطوط العريضة كما تقول فى مصطلحاتنا العصرية ، ولكن الاستعمار الشيوعى - حتى فى هذا النطاق المحدود أخفى وأوخم من أن يتم الالمام به فى ناحية واحدة دون الالمام العاجل بنواحيه الأخرى ، ولعلنا بهذه المقدمة الموجزة فى موضوعها قد أحطنا الصورة باطارها الذى يليح لنا ظلالها وملامحها من مختلف رواياها .

عباس محمود العقاد